الأنا في مرآة الآخر:

صراع الهوية في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" لعمارة لخوص

The ego in the mirror of the other: Identity conflict in the novel "How to Breastfeed a Lupus Without It Biting You" by Amara Lakhous

د.إيمان برقلاح

أستاذ

محاضر أ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-

ملخص:

أثارت الرواية الجزائرية المهاجرة كثيرا من الأسئلة، التي قد تتقاطع أو تختلف مع تلك التي يطرحها الروائيون المقيمون في الجزائر، والمتعلقة معظمها بالذاكرة، الهجرة، الهوية،الاستعمار.. وعمارة لخوص من الروائيين الجزائريين الذين جعلوا من القلم متنفّسا ورفيقا للغربة؛ فراح يحكي به عن التحديات الكبيرة التي تواجه الأنا(المهاجر) في رحلته مع اغترابه الداخلي والخارجي، وتعد روايته " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" نموذجا توضيحيا يبرز نظرة الآخر الغربي للأنا الشرقي المهاجر بسلبياتها وإيجابياتها، وهذا ما سنحاول عرض بعضَ نماذجه وتحليلها وفق مقاربة وصفيّة تحليلية .

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر،الهوية، الرواية المهاجرة،عمارة لخوص.

Abstract:

The Algerian immigrant novel raised many questions, which may intersect or differ from those asked by novelists residing in Algeria, most of which relate to memory, immigration, identity, and colonialism. Amara Lakhous is one of the Algerian novelists who made the pen an outlet and a companion to exile; He began to tell about the great challenges facing the (immigrant) ego on its journey with its internal and external alienation, and his novel "How to Breastfeed a Lupus Without It Biting You" is an illustrative model that highlights the Western other's view of the Eastern immigrant ego, with its negatives and positives. This is what we will try to present some of its models and analyze them according to a descriptive and analytical approachtical approach.

Keywords: ego, other, identity, immigrant novel, Amara Lakhous.

مقدمة:

كانت الرواية ولا تزال تشغل آراء الدارسين و النقاد،و تقدم أسئلة نقدية حول ما تحمله من صور للعلاقات الإنسانية،سيما ما تعلق منها بثنائية "الأنا"و"الآخر"،الشيء الذي ارتكزت عليه الرواية الجزائرية المعاصرة خاصة المهاجرة منها،فقطعت شوطا كبيرا في وعيها للآخر،باعتبارها الجنس الأدبي الأقدر على التعبير عن العلاقات المعقدة للإنسان المعاصر سواء أكان ذلك على صعيد "الأنا " أم على صعيد فهم "الآخر" ،مما ساهم بشكل فعال في بنائها ،فتحولت الرواية الجزائرية إلى مخبر للمخيال،تتعدد فيه الموضوعات والصور التقديرية للأنا والآخر.

و من هذا المنطلق جاءت هذه المداخلة ،لتقف على نظرة الآخر الغربي للأنا الشرقي في الرواية الجزائرية المهاجرة، وما يمكن أن يعتريها من تحولات وتغيرات في مخيال "الأنا"و"الآخر"بمجرد أن يحدث بينهما لقاء ،سواء أكان ذا طابع صدامي عنيف أم حواري مسالم ،لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال معرفة هذا "الآخر"وتشكيل صورة معينة عنه،إلا من خلال التوجه نحو التفاعل معه، ويعد عمارة لخوص من الروائيين الجزائريين الذين سخروا قلمهم لتوضيح ذلك، خاصة وأنه شاهد على طبيعة هذه العلاقة بإقامته في إيطاليا، فكتب رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" لتكون صورة حيّة لعلاقة المهاجرين من مختلف الجنسيات بسكان إيطاليا، والتي لقت رواجا كبيرا حتى أنها ترجمت إلى اللغة الإيطالية، ولكن تحت عنوان آخر "صدام الحضارات حول مصعد في ساحة فيتوريو" .

من هنا تسعى هذه المداخلة للإجابة عن جملة من التساؤلات أبرزها:

-كيف تجلت نظرة الأنا للآخر و نظرة الآخر للأنا من خلال رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" ؟

-كيف شكّل الصراع مع "الآخر"أزمة للذات الحضارية في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" ؟

و قبل البحث عن صورة الأنا في مرآة الآخر في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" لعمارة لخوص، سنتطرق أولا إلى استجلاء مفهوم هذين المصطلحين في مختلف العلوم الإنسانية.، وطبيعة العلاقة بينهما.

1-مفهوم الأنا:

يُعدّ مفهوم " الأنا " من أكثر المفاهيم استعصاءً على البحث والتقصي من حيث هو:"مصطلح مراوغ يستعصي على التعريف والحدّ الاصطلاحي لأنّه يدخل في مشاركة كبيرة في أغلب الفروع الإنسانية (الفلسفة ،علم النفس ،علم الاجتماع ...)"[1]، ففي مجال الفلسفة يُعتبر "الأنا" بالمعنى التقريبي له "النفس "، إذ نجد ذلك عند كثير من الفلاسفة وعلى رأسهم الفيلسوف "روني ديكارت"، الذي ربط بين الأنا فكرًا والأنا وجودًا بقوله: " أنا أفكر إذن أنا موجود" [2] ، فديكارت يرى أنّ الفكر مرتبط بالوجود فكوننا موجودين يعني أنّنا دائماً نفكر في صحة الأشياء من حولنا وهذا التفكير يُبنى على أساس الشك ليصل بذلك إلى حقيقة مفادها "أنا صفته التفكير"[3]، فعندما يكون "الأنا " يكون التفكير وعندما يكون التفكير يُثبت الوجود وضمن هذا المبدأ الفلسفي تمكّن ديكارت من إظهار مفهوم "الأنا" المفكّرة ودون هذا الوجود لا وجود للذات.

أمّا في مجال علم النفس، فقد ركّز العلماء في تحليلهم لمفهوم "الأنا" على الجانب الشعوري من الشخصية كونها الجانب الأساسي لفهم سلوك الإنسان، لكن بعد العجز الذي لوحظ في تفسير الكثير من السلوكات، ظهرت مدرسة التحليل النفسي مع "سيجموند فرويد" (1856 -1939)، الذي يرى "أنّ السلوك له دافع داخلي من قوى لا شعورية تكوّنت عبر تاريخ الشخص وخاصةً من خلال علاقته بوالديه" [4].

ومن خلال تجليّات مفهوم "الأنا" عند "فرويد" نستخلص أنّ "الأنا" وليدة الصراع القائم بين سلطة العالمين الخارجي والداخلي في وقت احتدم الصراع بين قوى الشخصية الثلاث ودوافعها الغريزية ، وبين الظروف التي تستشيرها في العالم الخارجي" ظهرت "الأنا" تلبيّة لحاجة النفس البشرية للتوازن النفسي والاجتماعي الذي يستدعيه مبدأ الواقع والعقل" [5].

---

[1] عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوتي (ابن القارض أنموذجا)، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، سوريا 2009، ص187.

[2] أحمد ياسين سليماني، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع ط1، دمشق، سوريا، 2009 ص192.

[3] المرجع نفسه، ص191.

[4] مأمون صالح، الشخصية (بناءها، أنماطها، إضطراباتها)، دار أمامة، ط1، عمان، الأردن، 2008، ص 21.

[5] سهاد توفيق الرياحي، ظاهرة الأنا في شعر المتنبي وأبي العلاء (دراسة دوازنة نقدية)، دار الزمان، ط1، عمان 2012، ص16،15.

من هنا يمكن اعتبار "الأنا" بمثابة الضابط الخلقي للفرد، أو ضابط الغرائز فكل الميول والرغبات والدوافع التي تنطلق من "الهوّ" تمرّ عبر "الأنا"، هذا الأخير يكبح هذه الرغبات الغريزية ويكبت ما يرى هناك من ضرورة لكبته " فالأنا تمثل الحكم وسلامة العقل "[6]، كما تُعتبر محور التوازن بين الهوّ والأنا العليا فلا هي مثالية ولا هي شهوانية هي الإتزان.

أمّا " يونغ" فيراهما" مركبيّن مستقلين بل يزيد الهوّة لتصبح المسافة بينهما والتي تفصلهما هي ذاتها بين الشمس والأرض"[7] ، ويقصد بذلك أنّه لا يمكن الخلط بينهما وأنّ" الذات كيان يفوق "الأنا" تنظيماً، إذ تحتضن "الذات" النفس الواعية والنفس الجماعية وتشكل بذلك شخصية أوسع وتلك الشخصية هي نحن"[8] ، وذلك أنّ "الذات" أوسع من "الأنا" لاحتضانها أكثر من ذات.

وما نستنتجه أنّ "الذات" بالإضافة إلى أنّها تشمل الأنا الفردية، تشمل أيضاً على الأنا الجماعية وبذلك يكون للآخر دور في تشكّل هذا الذات.

وكخلاصة يمكن القول إنّ "الأنا" تتعدّد دلالاته عند الفلاسفة والمفكرين كلٌّ يُعرِّفها حسب نظريته وعلى حسب الخلفية الفكرية التي ينطلق منها، فليس من الغريب إذن عدم وصول المنظّرين إلى وضع مفهوم محدّد لهذا المصطلح وكل ما يتصل به أي " الآخر".

2-مفهوم الآخر:

لم يستقر مفهوم "الآخر" على تعريف واحد منذ نشأته بدايةً من الجذور اليونانية إلى غاية العصر الحديث وهذا لاختلاف الرؤى والأفكار الخاصة بكل مدرسة أو مذهب فلسفي، ومصطلح الآخر في بداياته كان يطلق "على غير اليونان سواء كانوا في الشمال أي في العمق الأوروبي أو في قارتي إفريقيا وآسيا بهدف التمييز بين اليوناني المتحضّر وغيره المتخلّف "[9] .

وقد استخدم " أرسطو" اللّغة باعتبارها أهم عناصر الهوّية اليونانية، فأُطلق لقب بربري على كلّ من لا يتكلّم اللّغة اليونانية ويمكن استعباده إذا وقع أسيراً، وبهذه تمّ تحديد هوّية "الأنا" وربطها بالعنصر اليوناني و"الآخر" من هو خارج الدائرة اليونانية.

أمّا في الفلسفة المعاصرة، فقد شاع هذا المصطلح كثيراً خاصةً عند الفلاسفة الفرنسيين أمثال: جان بول سارتر، ميشال فوكو، جان لاكان، إيمانويل ليفيناس وغيرهم، "ولعلّ سمة الآخر المائزة هي

---

[6] ينظر: سيحموند فرويد، الأنا والهوّ، تر: محمّد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط4، عمان، 1982، ص16-17.

[7] كارل غوستاف يونغ، جدلية الأنا واللاوعي، تر: نبيل محسن، دار الحوار، ط1، اللاذقية، سوريا، 1997، ص58.

[8] المرجع نفسه، ص94.

[9] عبد الله بوقرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة 2006 -2007، ص16.

تجسيده ليس فقط كلّ ما هو غريب (غير مألوف) أو ما هو (غيري) بالنسبة للذات أو الثقافة ككلّ، بل أيضاً: كلّ ما يهدّد الوحدة والصفاء، وبهذه الخصائص امتدّ مفهوم الغيرية (alteritée) هذا إلى فضاءات مختلفة تمثّل التحليل النفسي والفلسفة الوجودية والظاهرتية "[10].

وعليه يُعدّ " الآخر" بالنسبة إلى "سارتر"، شأنه في ذلك شأن " لاكان " عاملاً فعالاً في تكوين الذات، "فوعي الذات الوجودي يكون بناءً على الطرف الآخر، بل ينطوي على أداء يدمّر إنسانين لأنّه يربط الكينونة بطريقة جبرية وغير مستقلة بين لحظتي " ما كان " وما سيأتي" « فهذا الوضع يجعل الكينونة تتصرف بطريقة مخجلة بسبب الآخر الذي يمنع تماما حرية الاختيار، لذلك اختتم سارتر مسرحيته لا مخرج بمقولته المشهورة الآخرون هم الجحيم"[11]، وهنا ربط سارتر بين الآخر والجحيم إذ جعل الآخر بالنسبة لنا هو الجحيم.

أمّا مفهوم "الآخر" عند " ميشال فوكو" " فمتعلق بالذات تعلقاً لا فكاك منه شأنه في ذلك شأن ارتباط الحياة بالموت، " فالآخر" بالنسبة إلى " فوكو" هو "الهاوية" أو الفضاء المحدود الذي يتشكل فيه الخطاب"[12]، ونقصد بذلك أنّ " الآخر" بالنسبة له هو الموت بالنسبة إلى الجسد الإنساني، "إنّ الآخر عند فوكو هو لا المفكّر فيه في الفكر نفسه، أو هو الهامشي الذي سيبعده المركز أو هو الماضي الذي يقصيه الحاضر ، لكنّه أيضاً جوهري بالنسبة لكينونة الخطاب الذي يستبعده فنحن لا نعرف الحاضر دون الماضي ولا نعرف الذات دون الآخر، أمّا على مستوى الخطاب، فالآخر هو معالم الانقطاع والفصل الذي يحاول التاريخ استبعادها ليؤكد إستمراريته".[13]

من خلال ما سبق نستنتج أنّ مفهوم " الآخر" يتحدّد حسب الذات ممّا يجعل "الآخر"مختلفا عنها ولهذا لا يمكن أن نحدّد " الآخر" في صورة واحدة ،فهو فقط يختلف عن " الأنا "وأنّ الذات والآخر مرتبطان لا يمكن فصلهما، متلازمان رغم طبيعة العلاقة التي تجمعهما (انفصال / تواصل /..) ،وأنّ أيّ استعباد لواحد منهما يعني موت الآخر.

3-العلاقة بين الأنا والآخر:

ارتبطت العلاقة التي تجمع " الأنا " " بالآخر" بعدّة ثنائيات ،كثنائية : التراث والحداثة ،الشرق والغرب ،اندرجت ضمن سياقات تاريخية وفكريّة موسومة تارةً بالإخضاع و التبعيّة ،وتارةً بالانبهار

[10] ميجان الرويلي ، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط5، بيروت، لبنان، 2007، ص21.

[11] المرجع نفسه، ص22.

[12] المرجع نفسه، ص22.

[13] المرجع نفسه، ص22.

والإعجاب الأمر الذي يجعل العلاقة بين " الأنا " و"الآخر"، جدلية قائمة في الحياة ،فلا وجود " لأنا " من دون " آخر" ولا " آخر" من دون " أنا "، فعلاقة وجودهما إلزامية سواء أكانت علاقة تنافر أم تجاذب، فبالأنا يُعرف الآخر وبالآخر نحاول فهم الأنا لدرجة أنّهما أصبحتا "ذاتان منفصلتان متصلتان في الوقت نفسه مفترقتان و متحدتان (...)فلا تكون الذات إلاّ بوجود الآخر وهذه بديهة (ربّما باستثناء الذات المطلقة ذات الإله)، والأمر بمجمله يشبه صفحتي ورقة لا يمكن فصل أحدهما عن الأخر"[14] أي أنّ علاقة هاتين الثنائيتين هي علاقة إلزامية"فصورتنا عن ذاتنا لا تتكوّن بمعزل عن صورة الآخر لدينا، كما أنّ صورة الآخر تعكس بمعنى صورة الذات" [15].

وعليه تصبح عمليّة نفي " الآخر" نفياً " للذات " في الوقت نفسه ،لأنّ الآخر مكمّل "للذات"، ومن يختزل " الآخر" يختزل ذاته ،ذلك أنّ الذات المتعدّدة تتطلّب وجود آخر متعدّد.

وبناءً على ما سبق يمكننا القول إنّه من الصعب تحديد مفهوم دقيق " للأنا " و"الآخر" في الثقافة العربيّة، نظراً لاتساع دائرتيهما، " فالأنا " قد تعني بلاد (الشرق) أو (الإسلام) أو (المتخلّف) ... هذه التسميات الواردة بين قوسين، هي دوائر متداخلة يصعب الفصل بينهما.

وإذا أردنا اختزال دائرة " الأنا " فإنّنا نجدها ترمز إلى الشرق، أمّا " الآخر" فنجده يرمز إلى ذلك الغربي الأوروبي " وعليه لنَعْترف بعدم إمكانية تجاوز مثل هذا التداخل ودلالة المصطلحات الثلاثة على شيء واحد في كثير من الأحيان، ونحن نتعامل مع كتّابنا (العرب) تحديدًا، وذلك لخصوصية علاقتنا به، فنحن لا نستطيع في معرض الحديث عن الذات العربيّة أن نتجاهل هذا الآخر/ الغرب سواء بوجهه الإيجابي أو السلبي"[16] .

وبهذا لا يمكن تجاهل الدور الذي يقوم به "الآخر" بشأن تصوّر الذات لذاتها ولا يمكن تجاهل الصراع الذي يحصل بينهما سواء بوجهه الإيجابي أو السلبي، كما أنّ اهتمام العرب بالغرب قد تجلّى في " قوّة التيّار الغربي في التغلغل في الجسد العربي المثخن بالهزائم والجراح" [17]، فإشكالية العلاقة مع الغرب لا تزال تأخذ بعدًا مزدوجاً فهي بحث وتأمل في "الأنا" وفي "الآخر"، فقد وصل العرب إلى أنّ هذه العلاقة باعتبارها ناتجة عن ردّ فعل دفاعي اتجاه سطوة واندفاع الغرب لذلك لابد أن تمرّ

[14] حسن العويدات، الآخر في الثقافة العربية من مطلع القرن العشرين، دار الساقي، ط1، 2010، ص19.

[15] الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1999، ص8.

[16] نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس، ط1، بيروت ، لبنان، 2013، ص39.

[17]عبد الرحمن بوعلي، الرواية العربيّة الجديدة، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، ط2، وجدة ، المغرب، 2001، ص327.

بالضرورة عبر التفكير في الذات ومن ثمة العودة إلى التراث والبحث فيه، إمّا من أجل تمجيده أو من أجل تصفية العلاقة معه والتنكّر له .

بعد هذه العجالة النظرية التي تسلط الضوء على المفاهيم المختلفة لمصطلحي "الأنا" و "الآخر" والعلاقة الموجودة بينهما تجدر بنا الإشارة إلى أن الرواية الجزائرية عامة والمهاجرة منها خاصة تتشكل في معظمها من ثنائية الأنا و الآخر ،و هذا لإعطاء بعد تشويقي لها ،خاصة و أن إدراج الآخر" المختلف في الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي"[18] يفتح عديد التأويلات في الرواية.

4-الرواية في سطور:

يقدّم الروائي الجزائري عمارة لخوص في روايته "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" طرحًا عميقًا لمسألة الحضارة والصراع بين المجتمعات، فهي حكاية الهروب من الذاكرة الجريحة إلى ذاكرة جديدة تنبض بالأدب والثقافة، بلغة رمزية تجلي حقائق واقع المهاجر في إيطاليا.

تتكوّن الرواية من مئة وواحدٍ وخمسين صفحة متوسطة الحجم، موزعة على أحد عشر "عواء"، يفصل بينها ما يُعرف بـ"الحقائق". وهذه الحقائق ليست سوى تصريحات وشهادات قدّمت داخل مكتب المحقق "ماورو بتاريني". وقد اختار الكاتب أن يطلق على كل شهادة اسم "حقيقة"، لأنها تتجاوز كونها مجرد إفادات حول مقتل "لورانزو منفريدي"، لتصبح اعترافات جريئة تكشف ما يدور في المجتمع الإيطالي.

تقوم أحداث الرواية على حادثة واحدة لم تقع في المكان الذي تدور فيه القصة، بل في الشرق في ذاكرة البطل التي تأبى النسيان. إنها واقعة دامية ظلّت تلاحقه لأكثر من عشر سنوات، حين لم تعرف أرض الجزائر سوى الدماء.

بدأت المأساة في لحظة زيفٍ فقد فيها البطل بهجته؛ لحظة ذُبح فيها الرجال واغتُصبت النساء، وأُطلق الرصاص على من رفض الخضوع. تركت تلك المأساة في نفسه أزمة نفسية عميقة، فاختار الهجرة إلى إيطاليا ليستقر في روما، حيث تعلّم اللغة الإيطالية واندماج بالمجتمع حتى أصبح جزءًا منه. حاول هناك أن ينسى "بهجة" -تلك الفتاة التي كانت ستصبح زوجته - وأن ينسى "بهجة" الوطن الذي خذله. فتعلّق بمعلمته "ستيفانيا"، التي فتحت له باب اللغة والحياة، وسكن معها في شقتها داخل العمارة التي تشكّل المسرح الرئيسي للرواية.

تتناول الرواية في "حقائقها" حياة سكّان العمارة وهم مجموعة من المهاجرين التقوا في مدينة روما وبالتحديد في حي يدعى " فيتوريو" بعدما جاءوا من مناطق مختلفة من العالم الثالث حالمين

[18] ماجدة حمود: إشكالية الأنا و الآخر(نماذج روائية)،عالم المعرفة، دط،الكويت،2013م،ص17.

بحياة جديدة في روما. إلا أنهم عانوا فيها كثيرا من الضغوطات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية بسبب هجرتهم غير الشرعية و الأحكام العنصرية التي كانت تصدر في حقهم ، بينما تكشف في "عواءاتها" عن ذكريات البطل التي أراد أن يتحرر منها، حتى أنه غيّر اسمه في محاولة لطمس ماضيه.

تبدأ المرحلة الثانية من الأحداث حين يُعثر على الشاب "لورانزو منفريدي" الملقب "بالغالدياتور" أو "المصارع " مقتولًا داخل المصعد، الذي كان محور الخلاف بين سكان العمارة. وقد وقع الحادث بعد يوم من شجار بين "أميديو" والقتيل، واختفى "أميديو" بعدها مباشرة، ليصبح المتهم الأول. وهنا تظهر الحقيقة الأولى"أميديو" لم يكن إيطاليًا كما ظن الجميع، بل هو "أحمد الجزائري".

كانت الصدمة كبيرة لجيرانه، إذ كانوا يرونه نموذجًا للإيطالي المثالي ،وسيمًا، مثقفًا، مهذبًا، ومطلعًا على كل ما يجري في البلاد.

تتوالى الحقائق بعد ذلك تصاعديًا، تمامًا مثل حركة المصعد الذي شكّل رمزًا لصراع الحضارات داخل العمارة. لم يكن الخلاف بين الجيران على النظافة فحسب، بل كان صراعًا حضاريًا بين الشرق والغرب: حضارة غربية تتباهى بتقدّمها، وأخرى عربية تفتخر بماضيها العريق. من خلال هذه المواجهات، يعرض لخوص تصادم الثقافات بأسلوب أدبي رشيق، جعل من الرواية مرآة تعكس تناقضات الشرق المتشبث بهويته والغرب المتغطرس بعنصريته.

كما يبرز لخوص مشكلة انعدام الثقة بين الطرفين؛ فالغرب، رغم استقباله للشرقيين، لا يتوقف عن توجيه أصابع الاتهام إليهم عند كل أزمة. ومن خلال علاقة البطل بالشخصيات الأخرى، يستعرض الروائي أزمة الهوية والاغتراب، وتعدد الانتماءات داخل مجتمع واحد يضم أجناسًا وثقافات متباينة.

وهكذا، لم تكن هذه الرواية حكاية واحدة، بل حكايات متعددة تنبثق من رحم الغربة، لتتناول وحشية الاغتراب، وازدواج الهوية، وضياع الانتماء، سواء عند الإنسان الشرقي أو الغربي.

5-الصراع الهوياتي:

الآخر وآلية إقصاء الذات المهاجرة في رواية " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك":

تُعدّ رواية «كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك» للروائي الجزائري عمارة لخوص واحدة من أبرز الأعمال السردية التي تناولت إشكالية الهوية وصراع الأنا والآخر في سياق الهجرة. تتناول الرواية تجربة المهاجر العربي في المجتمع الغربي، وتكشف من خلال شخصياتها المتعددة عن التوتر القائم بين الذات الباحثة عن الاعتراف والآخر المهيمن ثقافيًا وحضاريًا.

إنها رواية تُعيد طرح سؤال الهوية والانتماء في زمن العولمة، حيث يتحول اللقاء بين الشرق والغرب إلى مواجهة رمزية بين «الأنا» المهاجرة و«الآخر» الأوروبي، بين الذاكرة والواقع، وبين الجذور والانفتاح.

تجنح رؤية الآخر للأنا في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" إلى الرفض أكثر منها إلى القبول، ونعني بالآخر هنا المجتمع الإيطالي الذي ينظر في معظمه إلى المهاجر نظرة دونية مشوبة بالخوف والريبة والاحتقار، ويتجلّى ذلك من خلال حادثة الشاب (لورانزو مانفريدي) الذي خاطب الإيراني (بارويز) قبل مقتله قائلا: "أنت في بيتي، لا حقّ لك في الكلام. هل فهمت أيها الأجنبي الحقير؟ .. ثمّ أخذ يصرخ في وجهي إيطاليا للإيطاليين! إيطاليا للإيطاليين! إيطاليا للإيطاليين!"[19] ، في مشهدٍ يكشف عمق العنصرية ورفض التعدد الثقافي.

وهذا ما تُجسده أيضا البوّابة (بندتّا إسبوزيتو)التي تُظهر رفضًا قاطعًا للمهاجرين على امتداد صفحات الرواية، إذ لا تُبدي أيّ نوعٍ من الاستثناء أو التسامح تجاههم. فالمهاجر – مهما كانت جنسيته أو ديانته – يُمثّل بالنسبة إليها كيانًا دخيلًا ومصدر إزعاج، لأنه يترك وطنه ويزاحم الإيطاليين في فرص العمل. تعبّر عن ذلك بقولها: "ما أكثر الشبان الإيطاليين الذين لا يجدون عملا شريفا، فهم مجبرون على السرقة والكسب غير المشروع. يجب طرد العمال المهاجرين وتعويضهم بأبنائنا المساكين"[20].

ولا تكتفي (بندتّا) بالدعوة إلى طرد المهاجرين من العمل، بل تذهب أبعد من ذلك فتصِفهم بالمنحرفين وتطالب السلطات بطردهم من إيطاليا كلها أو الزجّ بهم في السجون، قائلة: "أتساءل عن مصير الضرائب التي ندفعها للدولة أليس لحمايتنا من هؤلاء المنحرفين؟ لماذا لا يزجون بإقبال والألباني وبقية المهاجرين المنحرفين في السجون أو يطردوهم من البلد؟"[21]، وهي تؤكد هذا الموقف أكثر من مرة.

ويزداد هذا الموقف العدائي حدةً بعد مقتل الشاب (لورانزو مانفريدي)، حيث تُوجَّه أصابع الاتهام إلى المهاجرين خصوصًا، فتقول (بندتّا) مؤكدة رفضها للآخر واحتقارها له: "أنا متأكدة من أن قاتل الشاب لورانزو مانفريدي هو واحد من المهاجرين، ويجب على الحكومة أن تتصرف بسرعة، عما قريب سيطردوننا من بلدنا، يكفي أن تتجول بعد الظهيرة في حديقة ساحة فيوتوريو لترى أن الأغلبية الساحقة من الأطفال أجانب من المغرب وروما والصين والهند وبولونيا والسينغال وألبانيا، إن العيش معهم مستحيل، لهم دين وعادات وتقاليد مختلفة عنا، في بلدانهم يسكنون في العراء أو في الخيام،

[19] عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، منشورات الاختلاف/ الدار العربية للعلوم،ط2،الجزائر/ لبنان،2006.ص 22.

[20] الرواية، ص38

[21] الرواية، ص 39.

ويأكلون بأيديهم، ويركبون على الحمير والجمال، ويعاملون النساء كالعبيد. أنا لست عنصرية، لكن هذه هي الحقيقة. ثم لماذا يأتون إلى إيطاليا؟ لا أفهم، البطالة منتشرة بكثرة عندنا ... كانت فرص العمل غير متوفرة لأهل البلد، كيف نستطيع استقبال هذه الأعداد الكبيرة من المهاجرين؟ لا تخلوا نشرات الأخبار التلفزيونية يوميا من مشاهد سفن المهاجرين غير الشرعيين الذين يحملون الأمراض المعدية كالطاعون والملاريا"[22].

ورغم كل هذا الخطاب المفعم بالرفض والكراهية، تصرّ (بندتّا إسبوزيتو) في نهاية حديثها على أنها "ليست عنصرية"، في مفارقة تكشف التناقض العميق في رؤيتها للآخر.

ولهذا السبب قام أحمد سالمي (أمديو) ، المهاجر الجزائري، بتوجيه نداءه إلى الضمير العالمي قائلاً: "يا أطباء العالم اتِحدُوا اخترعوا دواءً جديدا يشفي العنصريين من الحقد والكراهية"[23] قبل أن يتجاوز الدعوة الرمزية إلى التذكير بواقع تاريخي ملموس، حين قال: "أنتبه إلى مسألة إلصاق ظاهرة الإجرام بالمهاجرين بلا تمييز، كم عانى المهاجرون الإيطاليون في الولايات المتحدة من تهمة المافيا، لكن يبدوا أنّ الإيطاليين لم يتعلّموا من دروس الماضي"[24]، النتيجة جلية "للمهاجر وجه واحد عبر التاريخ رغم اختلاف لسانه ودينه ولونه وجلده"[25] ،و على الآخر فتح باب الحوار والاحتكاك به لمعرفته وكسر الصورة والمعتقدات القَبْلِيَة .

ويتجلّى العداء للآخر لدى (الزابتا فابياني) بصورة أشدّ حدّة، إذ تنظر هذه الإيطالية إلى المهاجر نظرة ازدراء تجعله في مرتبة أدنى من الحيوان، وتعبّر عن ذلك بقولها: "تشهد ساحة فيتوريو من حين لآخر مسيرات للمطالبة بحقوق المهاجرين: الحق في العمل، الحق في السكن، الحق في الصحة، الحق في الانتخابات، إلخ. أنا أقول إنه من الواجب أن نبدأ بأهل البلاد الأصليين الذين وُلدوا في إيطاليا، والكلاب هم من أبناء هذا البلد. أنا لا أثق في المهاجرين. قرأت مؤخرا في إحدى الصحف أن بستانيا مهاجرا اغتصب سيدة مسنة، أعطته كل شيء: بطاقة الإقامة والعمل والسكن، هل هذا جزاء الإحسان؟ هل سمعتم في حياتكم عن كلب اغتصب سيدته؟"[26].

وتضيف معبرة عن كراهيتها لهم واحتقارها لوجودهم قائلة: "الحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى المهاجرين... نستطيع الاستغناء عن المهاجرين بسهولة، يكفي أن ندرب كلابنا تدريبا جيدا..."[27] ،

---

[22] الرواية، ص40،41.

[23] الرواية، ص 59

[24] الرواية، ص 59

[25] الرواية، ص 81 ،82.

[26] الرواية، ص64.

[27] الرواية، ص65.

لتُبرز بذلك قناعتها بأنّ الكلاب – في منظورها – أرقى من الإنسان المهاجر، فهو حسبها يهدد كينونتها ويقاسمها حقوقها.

أمام هذا الرفض، تقف الذوات المهاجرة في الرواية موقف التحدي والتمسّك بالهوية. فـ(عبد الله بن قدور)، المهاجر الجزائري، يعلن اعتزازه بانتمائه قائلا: "لن أغير جلدي ولا ديني ولا لغتي ولا بلدي ولا اسمي مهما حدث. أنا فخور بنفسي، ليس مثل المهاجرين الذين يغيّرون أسماءهم حتى ينالوا رضى الإيطاليين"[28]، خاصة وأن المجتمع الإيطالي ينفر من كل من لا يشبهه في اللغة والعادات.

6-من الرفض إلى التلاقي:

تموضع الذات المهاجرة وإمكانات التعايش المشترك في رواية " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك":

لم تُصوّر الرّواية الإيطالي على أنه معاد للمهاجرين في جميع الأحوال، إذ قدّمت نماذج إنسانية متعاطفة معه، مثل شخصيتي (ستيفانيا مسارو) زوجة أمديو، و (ساندرو دنديني) صاحب الحانة، اللتين مثّلتا الجانب المتفهم للآخر. فـ(ستيفانيا)، رغم عملها في وكالة سياحية، لم تتوانَ في " تكريس بعض الساعات في الأسبوع للتطوع كمدرسة للغة الإيطالية للمهاجرين"[29] في تعبيرٍ واضح عن روح التضامن والإنسانية التي تحملها.

أما صاحب الحانة (ساندرو دنديني)، فيُعلن موقفه بصراحة قائلاً: "أنا لا أحقد على الأجانب : ألم يكن لاعب نادي روما الكبير فَالْكَاوْ أجنبيا ! ألك يكن سِيرِيزُو وفُولَرْ ولِينْدْهُولمْ وإِيرِكْسُونْ وهَاسْلَرْ أجانب؟ هؤلاء الأجانب صنعوا مجد نادي روما ويستحقون التبجيل والتقدير والاحترام"[30] ،وهو بذلك يقدّم رؤية منفتحة تُقدّر إسهامات المهاجرين وتكسر الصورة النمطية السائدة عنهم.

خاتمة:

مما سبق، تبرز رواية «كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك» براعة عمارة لخوص في معالجة إشكالية الهوية وصراع الأنا والآخر ضمن رؤية إنسانية عميقة.فهي لا تُدين الغرب بقدر ما تكشف تناقضاته، ولا تمجّد الشرق بقدر ما تدعوه إلى مراجعة ذاته.

تتأسس الرواية على جدلية الأنا والآخر بوصفها علاقة توتر دائم بين الذات والغير. فالأنا تمثل المهاجر الذي يحمل ذاكرة الوطن، وهويته الثقافية والدينية، ويسعى إلى التكيّف دون أن يفقد

---

[28] الرواية، ص130.

[29] الرواية، ص117.

[30] الرواية، ص110

جوهره.أما الآخر فيجسد المجتمع الإيطالي الذي ينظر إلى المهاجر بعين الريبة والتمييز، ويُمارس عليه أشكالًا مختلفة من الإقصاء والعنصرية.ويختصر العنوان هذه الجدلية في صورة رمزية بليغة: «أن ترضع من الذئبة دون أن تعضك» أي أن تتعلّم من الآخر، تستفيد من حضارته وتجربته، دون أن تفقد ذاتك أو تُبتلع في منظومته الثقافية. فالذئبة هنا تمثل الحضارة الغربية بكل ما فيها من إغراء وخطر، والرضاعة رمز للانفتاح المشروط الذي يضمن البقاء والاختلاف في الوقت ذاته.

إنها رواية تعلن أن الحوار مع الآخر ممكن، لكن بشرط الوعي بالذات والقدرة على التمييز بين الانفتاح والذوبان.

ومن ثمّ، فإنها تُقدّم نموذجًا سرديًا راقيًا لأدب ما بعد الهجرة، حيث تتجسد الهوية في التوتر الخلّاق بين الذات والغير.

قائمة المصادر والمراجع:

1- عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، منشورات الاختلاف/ الدار العربية للعلوم،ط2،الجزائر/ لبنان،2006.

2- عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوتي (ابن القارض أنموذجا)، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، سوريا 2009.

3- أحمد ياسين سليماني، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع ط1، دمشق، سوريا، 2009 .

4- مأمون صالح، الشخصية (بناءها، أنماطها، إضطراباتها)، دار أمامة، ط1، عمان، الأردن، 2008.

5- سهاد توفيق الرياحي، ظاهرة الأنا في شعر المتنبي وأبي العلاء (دراسة دوازنة نقدية)، دار الزمان، ط1، عمان 2012.

6- سيجموند فرويد، الأنا والهوّ، تر: محمّد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط4، عمان، 1982.

7- كارل غوستاف يونغ، جدلية الأنا واللاوعي، تر: نبيل محسن، دار الحوار، ط1، اللاذقية، سوريا، 1997.

8- عبد الله بوقرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة 2006 -2007.

9- ميجان الرويلي ، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط5، بيروت، لبنان، 2007.

10-حسن العويدات، الآخر في الثقافة العربية من مطلع القرن العشرين، دار الساقي، ط1، 2010.
11-الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 بيروت، لبنان، 1999.
12-نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس، ط1، بيروت لبنان، 2013.
13-عبد الرحمن بوعلي، الرواية العربيّة الجديدة، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، ط2، وجدة المغرب، 2001.
14-ماجدة حمود: إشكالية الأنا و الآخر(نماذج روائية)،عالم المعرفة، دط،الكويت،2013م.